وهذا التقديم في آية الأنعام للاهتمام والعناية، ذلك أنه أضاف العهد إلى الله فازداد تفخيماً وكان ذلك أدعى إلى تقديمه.

وقد تقول: ولكن الله سبحانه قال في مكان آخر: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴿٩١﴾ ﴾[النحل] فقدم الفعل على عهد الله.

وأحسب أن الفرق واضح بينهما ففي آية النحل خصص عهد الله بقوله: (إذا عاهدتم) وأطلقه في آية الأنعام. والفرق بينهما أن العهد الذي في النحل يعني به العهد الذي يعقده الشخص باختياره بدليل قوله: (إذا عاهدتم). جاء في (التفسير الكبير): «ولقائل أن يقول: : إنه تعالى قال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ فهذا يجب أن يكون مختصاً بالعهود التي يلتزمها الإنسان باختيار نفسه لأن قوله: (إذا عاهدتم) يدل على هذا المعنى»[1].

وأمّا ما في آية الأنعام فهو عام يشمل جميع العهود ما عهده الله إلى عباده وما تعاهد عليه الخلق فيما بينهم. ولا شك أن عهد الله بالمعنى العام أعظم من عهود العباد فيما بينهم. فقدم المجرور في الأنعام للاهتمام والعناية، وقدّم الفعل في النحل.

وهناك أمور أخرى طريفة في هاتين المجموعتين من الآيات، غير أننا نكتفي بهذا القدر فإن فيه الكفاية فيما أحسب.

---

(١) التفسير الكبير ٢٠/ ١٠٧ .

رفع المسهم

الحشد الفني في القصص القرآني

إن القصة الواحدة قد يكون فيها أكثر من موطن عبرة وأكثر من جانب استشهاد، فلا غرو إذن أن تذكر في المناسبة التي يراد الاستشهاد لها أو الموطن الذي يراد الاتعاظ به، وأن يبرز منها ما يراد الاعتبار أو الاستشهاد به ويسلط الضوء عليه. وهذا شأن القصص القرآني، فأنت ترى أن القصة في القرآن كأنها تتكرر في أكثر من موطن، والحقيقة أنها لا تتكرر ولكن يعرض في كل موطن جانب منها بحسب ما يقتضيه السياق، وبحسب ما يراد من موطن العبرة والاستشهاد.

إن قصة موسى مثلاً فيها مواطن عبر كثيرة ومواطن استشهاد متعددة:

منها: بيان أن قدر الله ماضٍ لا محالة وأنه لا يستطيع أحد أن يغيره أو يرجئه مهما حاول واتخذ من أسباب ووسائل، ويتجلى ذلك في قتل فرعون أبناء بني إسرائيل حذراً من ظهور الشخص الذي يزيل ملكه منهم، إلا أنه ربى في حجره الشخص الذي كان مقدراً له أن يزيل ملكه.

ومنها: بيان عاقبة الظُلم والظالمين، ويتجلى ذلك في نهاية فرعون النهاية الوبيلة.

ومنها: بيان لنفسية الشعوب المستضعفة المستذلة ولتكونها والسبل التي ينبغي أن تسلكها لتتحرر. ويتجلى ذلك في ذكر نفسية وتكوين بني إسرائيل الذين تربوا على الذلة والجبن والخنوع وذكر عنادهم وصلفهم وجبنهم وحبهم للدنيا، ومحاولة سيدنا موسى إعدادهم إعداداً آخر يرفعهم من وهدة الوحل الذي يتمرغون فيه، فلم يستجيبوا له حتى قضى الله عليهم بالتيه أربعين سنة أهلك فيها هذا الجيل وأخرج جيلاً آخر لم يتكون مثل هذا التكوين الذليل ولم ينشَأ تلك النشأة المهينة.

ومنها: بيان أن الحق له السلطان الأعظم على النفوس إذا ما عرفته وآمنت به، وأنه ليس بوسع أحد أيّ أحد أن يحول بينها وبينه مهما اتخذ من وسائل

إغراء أو تهديد، ويبدو ذلك في إيمان السحرة بموسى وفي دخول الحق بيت فرعون أعني إيمان امرأة فرعون.

وفيها وفيها، فذكر في كل موطن ما يقتضيه السياق منها.

ولذا نراه لا يذكر القصة على صورة واحدة بل، نراه يذكر في موطن ما يطوي ذكره في موطن آخر، ويفصل في موطن ما يوجزه في موطن آخر، ويقدم في موطن ما يؤخره في موطن آخر. بل تراه أحياناً يغير في التعبيرات ونظم الكلام تغييراً لا يخل بالمعنى. كل ذلك يفعله بحسب ما يقتضيه السياق وما يتطلبه المقام وذلك في حشد فني عظيم.

وحتى لا نطيل في سرد هذه الأحكام نذكر أمثلة على ذلك في اختيار طرف من القصص القرآني ولنبدأ بقصة سيدنا آدم عليه السلام.

رفع المسهم

قصة سيدنا آدم عليه السلام

١ ـ قصة آدم في سورتي البقرة والأعراف

قال تعالى في سورة البقرة:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ۖ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

* * *

وقال في سورة الأعراف:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ۚ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَنَادَىٰهُمَا

رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

* * *

تبدأ هذه القصة في البقرة من أقدم حدث فيها حين أبلغ الرب ملائكته بقراره في أن يجعل في الأرض خليفة وذلك قبل خلق آدم. وفيها ذكر مراجعة الملائكة لربهم في هذا القرار مبدين عدم رغبتهم في هذا الاستخلاف لأسباب ذكروها. فقطع عليهم تخوفهم وظنونهم بعلمه الذي لا يحد. ثم ذكر اختبار المفاضلة الذي أجراه بين آدم والملائكة ففضلهم فيه آدم، وثبت لهم فيه أنهم ليسوا أهلاً للاستخلاف في الأرض بخلاف آدم.

لقد ذكر هذه الأوليات في أول سورة في القرآن تذكر فيها القصة ولم يذكرها في موطن آخر، وذكرُ هذه الأوليات في هذا الموطن بالذات له أكثر من دلالة، فنية وغير فنية.

ومن بين جوانبها أنها وردت في المكان المناسب لها تماماً، فقد وردت أوليات القصة عند أول ذكر لها في أول سورة من سور القرآن، كما أنها أول قصة افتتح فيها القصص القرآني. في حين ذكرت القصة في سورة الأعراف من مرحلة الخلق والتصوير فهي تبدأ بقوله تعالى: (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) فكأنها كانت استكمالاً لما ورد في البقرة.

ذكر الله قصة آدم في البقرة بعد قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

وهذه الآية التي سبقت بها قصة آدم بدأت بتكريم الإنسان: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وختمت بالعلم: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وجاءت القصة بعدها مبنية على هذين الركنين: تكريم آدم وتكريم العلم.

أما تكريم آدم فيظهر فيما يأتي:

١ ـ ذكر استخلاف آدم في الأرض: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فهذا تكريم، إذ المستخلف ذو منزلة رفيعة ولا شك.

٢ ـ تفضيل آدم على الملائكة بتعليمه الأسماء كلها مما لا يعلمه الملائكة.

٣ ـ إسجاد الملائكة له.

وأما العلم في هذه القصة فقد تركز ذكره في ثلاثة مجالات:

١ ـ إثبات العلم الشامل لله.

٢ ـ نفي العلم عن الملائكة إلا ما علمهم إياه رب العزة.

٣ ـ إثبات التعليم لآدم بما يصلح أن يقوم به أمر الخلافة ويستقيم.

ومن هذا يتبين أن القصة وقعت في سياقها أحسن موقع وأجمله. فكأنها جاءت تفصيلاً لما أجمل في الآية قبلها.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إن ذكر استخلاف آدم في الأرض لم يرد إلا في هذا المكان، ولم يرد في أي مكان آخر من القرآن الكريم. وهو أنسب مكان له أيضاً إذ الاستخلاف الناجح لا بد أن يتم له أمران:

الأول: أن يكون للخليفة حق التصرف والتدبير فيما استخلف فيه.

والثاني: أن تكون له القدرة على هذا التصرف، وأن يكون اختياره قائماً على العلم بإمكانياته وقدراته على هذا الاستخلاف.

أما الجانب الأول وهو جانب التدبير والتصرف فقد فوضه به ربه بأوسع نطاق بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فلو لم يخلق له ما في الأرض جميعاً ما صح أن يكون خليفة لله فيها.

وأما من حيث إمكانياته وقدراته فقد تبين بالاختبار أنه أصلح المخلوقات لهذه المهمة، هذا علاوة على أن الذي اختاره عالم الغيب والشهادة.

وقد ذكرت الآية التي وردت في مقدمة القصة هذين الركنين وهما قوله:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ وقوله: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

فتكون الآية أجملت ركني الاستخلاف أيضاً، وبهذا تقع مسألة الاستخلاف هذه في أنسب مكان لها أيضاً.

ويتبين مما مر:

أنّ الآية التي وقعت في مقدمة القصة أجملت قصة آدم من ناحية، وأجملت ركني الاستخلاف المذكور فيها من ناحية أخرى.

فتكون قصة آدم بصورتها هذه وقعت في أنسب سياق لها وأعجبه.

هذا من حيث التفصيل السياقي للقصة، وأما من حيث الإجمال فإننا يمكننا القول: إنّ القصة في هذا الموطن في كل حلقاتها ومجالاتها مبنية في الحقيقة على تكريم آدم، وكل الجوانب الأخرى المذكورة فيها إنما تخدم هذا التكريم. فتكريم العلم إنما ظهر في العلم الذي يحمله آدم، ومسألة الاستخلاف إنما تدور على استخلاف آدم. فهي تدور أساساً على تكريم آدم. وكل ما فيها من ألفاظ ومواقف إنما هي مبنية على هذا التكريم.

في حين أن القصة في الأعراف ليست مبنية على هذا الأمر بل لها غرض آخر، وقد وقع فيها التكريم ثانوياً. ونظرة واحدة إلى السياق الذي وقعت فيه القصة والتعبيرات التي وردت فيها تريك مصداق هذا الأمر.

لقد بدأت القصة في الأعراف بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

وأنت ترى الفرق واضحاً من حيث التكريم بين قوله: ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ وقوله: ﴿ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ ﴾. وغني عن القول إنّ التعبير الأول يدل على تكريم أكبر من الثاني. ثم انظر كيف ختم الآية بقوله: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ فهي في مقام العتاب على بني آدم ومؤاخذتهم على قلة شكرهم وليست في مقام تكريمهم. وقبلها قال ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ فأنت ترى أن المقدمتين تختلفان، وكل قصة إنما جاءت منسجمة مع مقدمتها.

أما من حيث السياق فإن القصة وقعت في الأعراف في سياق العقوبات وإهلاك الأمم الظالمة من بني آدم، وفي سياق غضب الرب سبحانه فقد قال قبلها: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْهُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

فقد ذكر أنه عاقب قسماً كثيراً من بني آدم وأنزل عليهم بأسه لظلمهم، فالفرق واضح بين السياقين. ولذا بنيت كل قصة على ما جاء في سياقها. وإليك إيضاح ذلك:

١ - لقد ذكر معصية إبليس في البقرة بقوله: ﴿ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فقد جمع لإبليس الإباء والاستكبار والكفر للدلالة على شناعة معصيته بحق آدم الذي أكرمه الله وعلّمه. ولم يقل مثل ذلك في أي مكان آخر من القرآن بل هو إما أن يقول: (أبى) وإما أن يقول: (استكبر) كما سنرى ذاك، ولم يجمعهما إلا في هذا الموطن. وأما في الأعراف فقد قال: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ وأنت ترى الفرق واضحاً بين التعبيرين. فقد ذكرت كل عبارة بحسب موقف التكريم.

٢ - قال في البقرة: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

وقال في الأعراف: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴿١٩﴾ ﴾.

وأنت تلاحظ الفروق بين التعبيرين في هاتين الآيتين. فقد قال:

في البقرة	في الأعراف
وقلنا يا آدم اسكن	ويا آدم اسكن
وكلا منها	فكلا
رغداً	—
حيثُ شئتما	من حيث شئتما

فقد أسند القول في البقرة إلى نفسه (وقلنا يا آدم) وهذا يقوله القرآن في مقام التكريم والتعظيم، فإن الله سبحانه يظهر نفسه في مقام التفضل والتكريم، في حين جمع بين طرد إبليس وإسكان آدم بقول واحد في الأعراف وهو لفظ (قال) بإسناد القول إلى الغائب: ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا . . . . وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ فلم يفرد آدم بقول.

وناسب التكريم والتعظيم أن يذكر (رغداً) في البقرة دون الأعراف لأن المقامين، مختلفان جاء في (البرهان) للكرماني: «وزاد في البقرة (رغداً) لما زاد في الخبر تعظيماً بقوله: (وقلنا) بخلاف سورة الأعراف فإن فيها: قال»[1].

وقال في البقرة: (وكلا) وقال في الأعراف: (فكلا) فجاء بالواو في البقرة وجاء بالفاء في الأعراف. والواو لمطلق الجمع والفاء تفيد التعقيب والترتيب. فالواو أوسع من الفاء لأن من جملة معانيها معنى الفاء، فيصح أن يكون معطوفها مفيداً للتعقيب ولغيره. جاء في (التفسير الكبير): «قال في سورة البقرة: (وكلا منها رغداً) بالواو وقال ههنا: (فكلا) فما السبب فيه؟.

وجوابه من وجهين:

الأول: أن الواو تفيد الجمع المطلق، والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو. ولا منافاة بين النوع والجنس»[2].

فالواو صالحة لجميع الأزمان بما فيها معنى الفاء. أما الفاء فتفيد التعقيب، أي: أن يقع المعطوف بعد المعطوف عليه مباشرة. فجاء بالواو في سورة البقرة للدلالة على السعة في الاختيار، وهو المناسب لمقام التكريم. ألا ترى لو قلت لشخص ما: (ادخل وكل) كان له الحق في أن يأكل متى شاء على حسب رغبته، فمتى أكل كان موافقاً للأمر.

---

(١) البرهان ٨٦.

(٢) التفسير الكبير ١٤/ ٤٥.

رفع المسهم

ولو قلت: (ادخل فكل) كان عليه أن يأكل في عقب الدخول ولو تأخر لكان مخالفاً للأمر ويحق لك أن تمنعه منه. فالواو أرحب زمناً من الفاء. فذكر كل حرف في المكان الذي هو أليق به.

وقال في البقرة: ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾.

وقال في الأعراف: ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾.

فقد أعاد ضمير الجنة في البقرة مع الأكل فقال: (منها) ولم يعده في الأعراف. فأنت ترى أنه ذكر الجنة وضميرها في البقرة. وهو المناسب لمقام التكريم فيها، ولم يفعل مثل ذلك في الأعراف.

ثم إنّ الظرف (حيث شئتما) في البقرة يحتمل أن يكون للسكن والأكل جميعاً والمعنى: (اسكنا حيث شئتما وكلا حيث شئتما) فالسكن حيث يشاءان والأكل حيث يشاءان أيضاً.

وأما التعبير في الأعراف فلا يحتمل إلا أن يكون للأكل (فكلا من حيث شئتما) ولا يصح تعليقه بالسكن، فلا يصح أن يقال: (اسكنا من حيث شئتما) فالمشيئة والتخيير في البقرة أوسع لأنها تشمل السكن والأكل بخلاف الأعراف، وهو المناسب لمقام التكريم في البقرة كما هو ظاهر.

٣ - قال في البقرة: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾.

وقال في الأعراف: ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾.

والإزلال غير التَّدْلِيَةِ فإن الزلة قد تكون في الموضع نفسه، وأما التدلية فلا تكون إلا إلى أسفل، ذلك أنها من التدلية في البئر فإذا دلّيت أحداً فقد أنزلته إلى أسفل، بخلاف الزلة فقد لا تكون إلى أسفل. ومعنى (دلاّهما): أنزلهما من مكان إلى مكان أحط منه. فخفف المعصية في البقرة وسماها زلة مراعاة لمقام التكريم بخلاف الأعراف. فاستعمل كل تعبير في المكان الذي هو أليق به.

٤ - لم يذكر في البقرة معاتبة الرب أو توبيخه لآدم وزوجه على معصيتهما مراعاة لمقام التكريم بخلاف الأعراف فقد ذكر أنه عاتبهما عليها فقال: ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ولا شك أن مرتبة العتاب أدنى من عدمه.

ثم انظر كيف ناسب هذا العتاب لأبوي البشر في الجنة عتاب أبنائهما في الدنيا في الآية التي سبقت هذه القصة: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ وكيف وقعا موقعاً متناسقاً واحداً؟

٥ - طوى في البقرة تصريح آدم عن نفسه بالمعصية ولم يذكرها إكراماً له في حين ذكرها في الأعراف فقال: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

وانظر بعد هذا كيف يتسق ندم آدم ههنا مع ما ذكره قبل القصة من ندم المعاقبين من بني آدم ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْهُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾[الأعراف].

ثم انظر كيف اتفق الندمان على أمر واحد وهو الظلم فقال آدم: ﴿ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ وقال أبناؤه: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

ثم ارجع النظر مرة أخرى وانظر كيف كانت العقوبة على قدر الظلم، فقد قال آدم: (ظلمنا) بالصيغة الفعلية الدالة على الحدوث والطروء للدلالة على أنها زلّةٌ طارئة وليست معصية إصرار. وقال أبناؤه: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بالصيغة الإسمية الدالة على الثبات على الظلم والإصرار فتاب على الأولين وأهلك الآخرين.

فانظر يا رعاك الله أيّ كلام هذا وأية لوحة فنية هذه!

٦ - ذكر في البقرة أن آدم تلّقى من ربه كلمات فتاب عليه ولم يذكر ذلك في الأعراف، وإنما ذكر فيها أنّ آدم طلب من ربه المغفرة، والرحمة ولم يذكر أنه تاب عليه.

فانظر الفرق بين المقامين:

مقام البقرة الذي لم يذكر فيه أن آدم طلب من ربه المغفرة وذكر أنه تاب عليه مع ذلك.

ومقام الأعراف الذي ذكر فيه أن آدم طلب من ربه المغفرة ولم يذكر أنه تاب عليه. وانظر تناسب سياق البقرة مع مقام التكريم وسياق الأعراف مع مقام العتاب والمؤاخذة وقل: جلّ قائلُ هذا الكلام.

رفع المسهم

٧ - قال في البقرة: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

ولم يقل مثل ذلك في الأعراف. والتكريم واضح في هذه الآية إذ فيها وعد لمن تبع الهدى بالعودة إلى الجنة حيث لا خوف ولا حزن.

ثم انظر كيف قال: (تبع) بالتخفيف ولم يقل: (اتّبع) بالتشديد كما فعل في (طه) فقد قال فيها: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ ذلك أن الفعل بالتشديد يفيد المبالغة فاكتفى في البقرة بالأخفّ من الحدث ولم يشدّد عليهم تخفيفاً على البشر مراعاة لمقام التكريم.

هذا علاوة على أن في وضع كل فعل من هذين الفعلين في موضعه أسرار وأسرار.

منها: أن الفعل (تبع) تردد في سورة البقرة أكثر من أية سورة أخرى في القرآن الكريم، فوضعه في مكانه الذي هو أليق به. وقد مر بنا نظائر هذا الاستعمال.

ومنها: أن التخفيف الذي يفيد التلطف بالعباد جاء مع إسناد القول إلى نفسه، وأن التشديد جاء مع إسناد القول إلى الغائب (قال) وقد ذكرنا أن الله سبحانه يظهر نفسه في موقف التلطف والتكريم. فوضع كل فعل في موضعه الذي هو أليق به.

ومنها: أن نهاية الآية في البقرة تتعلق بالآخرة وهو قوله تعالى: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي: في الآخرة. ونهاية الآية في (طه) تتعلق بالدنيا والآخرة وهو قوله: ﴿ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ فقوله: (فلا يضل) متعلق بالدنيا لأن الضلال إنما يكون فيها: وأما في الآخرة فينكشف الغطاء ويصبح الناس كلهم على بصيرة. وقوله: (ولا يشقى) متعلق بالآخرة لأن الدنيا لا تخلو من الشقاء بدليل قوله تعالى لآدم قبيل هذه الآية: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ أي: إذا خرجت من الجنة شقيت، وقد أخرجهما من الجنة فلا بد من الشقاء إذن.

ولما كانت آية (طه) تتعلق بالدنيا والآخرة بخلاف آية البقرة زاد في بناء الفعل إشارة إلى زيادة متعلقه.

ثم إن كل آية من الآيتين تقتضي الفعل الذي اختير لها من جهة أخرى، ذلك أن آية (طه) تتضمن أمرين: مجاهدة الضلال في الدنيا والفوز في الآخرة. وآية البقرة تتضمن الفوز في الآخرة. والحالة الأولى تتطلب عملاً أكثر وأشق فجاء بالفعل الدال على المبالغة والتكلف للأمر الشاق، وجاء بالفعل الخفيف للعمل الخفيف.

وقد تقول: أفلا يتطلب الفوز في الآخرة مجاهدة الضلال في الدنيا؟ فأقول: إنَّ الفوز في الآخرة على مراتب بعضها أعلى من بعض. وليس كل الناجين في الآخرة ممن كانوا يجاهدون الضلال في الدنيا أو لم يضلوا في أمر من الأمور. فمجاهدة الضلال والتحري لعدم الوقوع فيه مرتبة عالية تتطلب جهداً كبيراً ومشقة في العمل. فوضع كل فعل في المكان الذي يقتضيه تماماً.

فانظر كيف يراعي في اختيار اللفظة أوجهاً متعددة، كل وجه يقتضيها من ناحية وينادي عليها بحيث تكون اللفظة كأنها مصوغة لهذا الموضع، أو أن الموضع كأنما أُعد إعداداً لتحل فيه.

ثم انظر هداك الله أيمكن أن يكون هذا من كلام البشر؟!.

٨ - قال في الأعراف: ﴿ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ وقال فيها أيضاً: ﴿ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾

وقال في خاتمة السورة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴾ فناسب بين القصة وخاتمة السورة، ذلك أنه نفى عن ملائكته التكبر وأثبت لهم السجود، بخلاف إبليس الذي أثبت له التكبر ونفى عنه السجود.

وقال في البقرة في إبليس: ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ وقال في خاتمة السورة: ﴿ فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ فلاءم بين القصة وخاتمة السورة كما فعل في الأعراف.

ونحو ذلك قوله تعالى على لسان إبليس في قصة الأعراف: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ وقوله تعالى في مقدمة القصة: ﴿ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ فقد لاءم بين الآيتين أجمل ملاءمة، فقد قطع إبليس عهداً على نفسه بأنه سيحول بين بني آدم والشكر. وظاهر أن بني آدم وقعوا في شَرَك إبليس الذي نصبه لهم لئلا يشكروا فكانوا كما أراد (قليلاً ما يشكرون). وصدق قول الله فيهم: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[سبأ]. فقد استجابوا لوسوسته كما استجاب أبوهم لها من قبل ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٩ - قال تعالى في الأعراف: ﴿ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا ﴿٢٠﴾ ﴾ فذكر أن الغرض من الوسوسة هو أن يبدي لهما السوءات المخفية. وقد وقع ذلك فعلاً: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ ﴿٢٢﴾ ﴾ بغية سترها.

وعقب على ذلك بقوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

وهذا التعقيب هو المناسب لظهور السوءات وانكشافها في الجنة. ثم انظر كيف ذكر ههنا كلمة (لباس) مع التقوى فقال: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ مناسبة لما مر من السياق. فالتقوى لباس يواري السوءات الباطنة، واللباس والرياش يواري السوءات الظاهرة. فانظر هذا التناسب الجميل. جاء في (التفسير الكبير):

«إنه تعالى لما ذكر واقعة آدم في انكشاف العورة أنه كان يخصف الورق عليها أتبعه بأن بيّن أنه خلق اللباس للخلق ليستروا بها عوراتهم، ونبه به على المنة العظيمة على الخلق بسبب أنه أقدرهم على التستر»[1].

---

(١) التفسير الكبير ١٤/ ٥١ .

رفع المسهم

ثم انظر إلى تحذير الله لذرية آدم كيف يتناسب وما مر فقال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴿٢٧﴾ ﴾[الأعراف].

وانظر بعد ذلك كيف أمر بأخذ الزينة عند كل مسجد فقال: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴿٣١﴾ ﴾[الأعراف]. والزينة هي الرياش واللباس[1].

وعقب بعد ذلك بقوله: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴿٣٢﴾ ﴾[الأعراف].

ثم انظر بعد ذلك كيف قال في عذاب أهل جهنم: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴿٤١﴾ ﴾ وكيف ناسب كل ذلك ما مر في قصة آدم.

فأنت ترى أن الشيطان نزع عن أبوينا اللباس في الجنة، وهو في هذه الدار حريص على أن يفتننا لنتعرى من اللباس الظاهر والباطن، ولا يرضى في الآخرة إلا بأن نتسربل من سرابيل جهنم أعاذنا الله منها وأن يكون لنا منها مهاد وغواشٍ نسأل الله العافية.

فانظر أي تناسق هذا وأي فن عجيب.

---

(١) انظر الكشاف ١/ ٥٤٦ .

رفع عبد الرحمن النجدي المسلم

٢ ـ قصة آدم في سورتي الأعراف و (ص)

قال تعالى في سورة الأعراف:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

* * *

وقال في سورة ص:

﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ

أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾.

بيّنا في موطن سابق علاقة قصة آدم بالآية التي تقدمتها في سورة الأعراف مما يغني عن إعادة ذكره.

أما القصة في سورة (ص) فقد وردت بعد ذكر الخصومة في الملأ الأعلى ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾. وهذا هو الموطن الوحيد الذي ورد فيه ذكر لهذه الخصومة، ولم يرد مثل ذلك في أي موطن آخر من القرآن الكريم. وهذا هو المقام المناسب لذكرها، ذلك أن جو السورة مشحون بالخصومات فقد افتتحت السورة بالخصومة والشقاق: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾ وهل الشقاق إلا خصومة؟

ووردت فيها قصة الخصومة التي فصل فيها نبي الله داود قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴿٢٢﴾﴾.

وخصومة نبي الله أيوب مع زوجه حتى إنه حلف لَيَضْرِبَنَّها مائة جلدة، فأفتاه الله بقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴿٤٤﴾﴾.

وخصومة أهل النار في النار وتبادل الشتائم فيما بينهم: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾.

ثم ختم هذه الخصومة بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾. وخصومة الملأ الأعلى في أمر آدم: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾. فانظر كيف جاء ذكر الخصومة ههنا مناسباً لجو السورة تماماً.

مما مر يتبين أن القصة وقعت ههُنا في سياق الخصومات وما تقتضيه من أخذ ورد ومحاجّة، بخلاف القصة في سورة الأعراف. فقد ذكرنا فيما سبق أن القصة فيها وقعت في سياق العقوبات وإهلاك الأمم الظالمة من بني آدم وفي سياق غضب الرب سبحانه فقد قال قبلها: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا

فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾[الأعراف].

فقد ذكر أنه عاقب قسماً من بني آدم وأنزل عليهم بأسه لظلمهم. فمقام السخط والغضب في قصة الأعراف أكبر مما هو في (ص). وقد بُنيت كل قصة على ما جاء في سياقها، وإليك إيضاح ذلك:

قال تعالى في الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴿١٢﴾﴾.

وقال في (ص): ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴿٧٥﴾﴾.

فقد زاد (لا) في الأعراف لتوكيد السجود وهو قوله: (ألاّ تسجد) دون ما ورد في (ص) وذلك لأسباب عدة اقتضت الزيادة فيها. منها:

أن التوكيد في قصة الأعراف أشد فاقتضى ذلك أن يؤتى بـ (لا) الزائدة المؤكدة. يدل على ذلك بدؤه القصة في الأعراف بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾. و(لقد) مؤكدان هما اللام وقد. وهي ـ أعني لقد ـ قسم مقدر عند النحاة. والقسم توكيد بخلاف القصة في (ص) فإنها تبدأ بقوله: ﴿وإذ قلنا﴾. وأن المؤكدات فيها أكثر (لقد، زيادة (لا)، إنك من الصاغرين، إنك من المنظرين، لأقعدنّ، لآتينهم، لأملأنّ جهنم منكم أجمعين، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين) فناسب ذلك المجيء بـ (لا) الزائدة المؤكدة.

ومما حسّن التأكيد واقتضاه في الأعراف قوله تعالى: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ ومخالفة هذا الأمر كبيرة ولم يقل مثل ذلك في (ص) بل قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ فكان الحساب على مخالفة الأمر أشد واللفظ أعنف وأغلظ.

وهناك جانب فنيّ آخر حسّن زيادة (لا) في الأعراف دون (ص) وهو أن سورة الأعراف تبدأ بـ ﴿الٓمٓصٓ﴾ وقد انتبه القدامى إلى أن الحروف المقطعة التي تبدأ بها السور يكثر ترددها في السورة بصورة أكثر وأوضح من غيرها[1].

---

(١) انظر بدائع الفوائد ٣/ ١٧٣ .

رفع المسهم

فناسب ذلك زيادة (لا) وهي لام وألف في السورة التي تبدأ بألف ولام دون التي لم تبدأ بهما.

ثم إن جو السورة في الأعراف يختلف عنه في (ص) مما حسّن تأكيد السجود في الأعراف دون (ص)، ذلك أن مشتقات السجود كالسجود والساجدين ونحوها ترددت في سورة الأعراف تسع مرات[1] بخلاف سورة (ص) فإنها لم تذكر فيها إلا ثلاث مرات[2]. وختم السورة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾[الأعراف] في حين لم ترد مشتقات السجود في سورة (ص) إلا في هذه القصة في الآيات ٧٢، ٧٣، ٧٥.

لقد ترددت مشتقات السجود في الأعراف في هذه القصة وحدها أربع مرات، وفي سورة (ص) جميعها ثلاث مرات، فناسب ذلك أن يؤكد السجود في الأعراف دون (ص) والله أعلم. ثم إن مقام السخط والغضب في قصة الأعراف أكبر كما ذكرنا، فناسب ذلك الزيادة في التوكيد والغلظة في القول، ويدل على ذلك أمور منها:

أنه طوى اسم إبليس فلم يذكره في الأعراف فقال: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴿١٢﴾﴾ في حين ذكر اسمه في (ص) فقال: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴿٧٥﴾﴾.

ويدل على ذلك صيغة الطرد في الأعراف قال: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ فقد كرر الطرد مرتين وهما قوله: (فاهبط) وقوله: ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾. وكرر الطرد مرة أخرى في الآية الثامنة عشرة قائلاً: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾.

وليس الأمر كذلك في سورة (ص) فإنه قال: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ ولم يكرر الطرد مرة أخرى.

---

(١) انظر الآيات ١١ (ثلاث مرات)، ١٢، ٢٩، ٣١، ١٢٠، ١٦١، ٢٠٦.

(٢) انظر الآيات ٧٢، ٧٣، ٧٥.

لقد طرده في الأعراف كما طرده في (ص) ثم زاد عليه فقال في الأعراف: ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ وقال أيضاً: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾، وقال في (ص): ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ فكرر الطرد بصيغة الخروج مرتين في الأعراف ومرة في (ص). وزاد على ذلك في الأعراف فقال: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ والهبوط أشد طرداً من الخروج إذ الهبوط لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل، بخلاف الخروج فقد لا يكون كذلك. فهو أخرجه أولاً ثم أهبطه مما يدل على شدة الغضب في الأعراف.

ومما يدل أيضاً على أن مقام السخط في قصة الأعراف أكبر: عدم التبسط مع إبليس في الكلام بخلاف ما ورد في (ص). وأن عدم التبسط في الكلام مما يدل على السخط الكبير يدل على ذلك أنه قال في (الأعراف): ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾.

في حين قال في (ص): ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ والتبسط واضح في القول الأخير.

وقال في الأعراف: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾.

في حين قال في (ص): ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾ فزاد (ربِّ) والفاء.

وقال في الأعراف: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾.

في حين قال في (ص): ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾.

فزاد الفاء وزاد ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾.

ثم انظر من الناحية الفنية كيف أنه في (ص) لما ذكر الفاء في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾ كان الجواب بالفاء كذلك: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾، ولما لم يذكر الفاء في قوله: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ كان الجواب بدون فاء كذلك: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾.

فانظر كيف أنه لما رأى أن الله تبسّط معه في الكلام تبسّط هو أيضاً، بخلاف ما في الأعراف فإنه لما رأى السخط الكبير لم يجرؤ أن يتبسّط في الكلام بل جعله على أوجز صورة وأقصر تعبير، ولكل مقام مقال.

فانظر يا رعاك الله علو هذا الكلام وفخامته والبصير يرى.

٣ ـ قصة آدم في الحجر و (ص)

قال تعالى في سورة الحجر:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

* * *

وقال في سورة ص:

﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾.

* * *

عرض القرآن الكريم في سورتي الحجر و (ص) جانباً واحداً من القصة وهو ذكر معصية إبليس وعداوته للإنسان، ولم يذكر فيهما ما يتعلق بآدم، بل لم يرد

فيهما اسم آدم أصلاً، بخلاف ما مر في سورتي البقرة والأعراف فإنه ورد فيهما ذكر جانبي القصة: ما يتعلق بآدم وما يتعلق بإبليس.

فكأن الغرض من ذكر القصة في الحجر و (ص) تحذير الجنس البشري من عداوة إبليس الأبدية.

ومع أن الجانب المذكور من القصة يكاد يكون واحداً في السورتين غير أنهما لم تتطابقا. فثمة أمور عرضت لها القصة في الحجر تختلف عما في (ص)، وهذا نظير ما مر بنا من اختلاف القصتين، في البقرة والأعراف.

إن كثيراً من الألفاظ والعبارات متطابقة في القصتين غير أن هناك اختلافاً بينهما أيضاً يتناسب وسياق كل قصة.

وإليك بيان ذلك وإيضاح طرف من الأسباب الداعية لهذا الاختلاف:

في (الحجر)	في (ص)
ـ خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون	خالق بشراً من طين
ـ إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين	إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين
ـ مالك ألاّ تكون مع الساجدين	ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين.
ـ قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون.	قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين
(ذكر إبليس أصل آدم ولم يذكر أصله هو)	(ذكر إبليس أصله وأصل آدم وذكر أنه خير منه).
ـ وأن عليك اللعنة	وأن عليك لعنتي
ـ قال ربِّ بما أغويتني	قال فبعزتك
ـ لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين	لأغوينهم أجمعين (من دون ذكر التزيين).
ـ إلاّ من اتبعك	وممن تبعك.

١ - ذكر في سورة الحجر أنه خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون، وذكر في (ص) أنه خلقه من طين. قال تعالى في سورة الحجر: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾.

وقال في (ص): ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ ﴾.

وكلمة (صلصال) متكونة من (صاد) وهو مفتتح سورة (ص) ومن (ألف ولام) وهما في مفتتح سورة الحجر، وقد تكررت هذه الكلمة في القصة مرتين، فتكون اللام تكررت أربع مرات والألف مرتين والصاد أربع مرات. وعلى هذا يكون وضع الكلمة في السورة المبدوءة بالألف واللام أنسب، لأن مجموع ترددهما أكثر من الصاد.

ومن ناحية أخرى إن القصة في سورة الحجر وردت بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ فكان المناسب أن ترد هذه اللفظة في صلب القصة أيضاً.

٢ ـ ذكر في الحجر أن إبليس (أبى).

وذكر في (ص) أنه استكبر.

قال تعالى في الحجر: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وقال في ص: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

ومعنى (أبى) غير معنى (استكبر) فإن معنى (أبى): رفض وامتنع. ومعنى (استكبر): رأى نفسه خيراً من الآخرين. والرفض والامتناع قد يكونان لغير الاستكبار. وقد بنيت كلُّ قصة على ما ذكر فيها. فقد بنيت قصة الحجر على الإباء والرفض، وبنيت قصة (ص) على الاستكبار، يدلك على ذلك أمور منها:

أنه لما قال في (ص): (استكبر) كان سؤال رب العزة له: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ وهذا هو المناسب للاستكبار. ولم يقل مثل ذلك في الحجر.

ثم انظر إلى جواب إبليس في (ص) كيف كان مناسباً للاستكبار، ذلك أنه قال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ وهو تكبر واضح يدلك على ذلك أنه لما قال ذلك في قصة الأعراف قال له رب العزة: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴿١٣﴾﴾.

ولم يقل مثل ذلك في الحجر ولكن قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ وهذا هو المناسب لكلمة (أبى) ذلك أن هذا القول يدل على الرفض والامتناع لا على الاستكبار. فإنك إذا قلت: (لم أكن لأفعل هذا) لم يفد قولك الاستكبار عن فعله، ولكن يفيد الامتناع عنه.

هذا علاوة على أن جوّ سورة الحجر عموماً هو الامتناع والرفض، وجوّ سورة (ص) هو الاستكبار والعلو.

فقد ذكر في الحجر أن قسماً من الكفار يرفضون الهداية ولو جئتهم بكل أسبابها قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

وذكر فيها أن قوم لوط رفضوا عرض نبيهم لهم حين طلب منهم الكف عن التعرض لضيفه، قال تعالى على لسان نبيه لوط: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾ فأجابوه قائلين: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

وذكر فيها أن أصحاب الحجر رفضوا الآيات التي جاء بها نبيهم وأعرضوا عنها، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾.

في حين أن جوّ سورة (ص) يشيع فيه الاستكبار والعلو ـ كما أسلفنا ـ.

فقد ذكر في أول السورة أن الذين كفروا في عزة وشقاق. والمراد بالعزة ههنا «الاستكبار عن الحق»[1] وعدم الانقياد له. وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴿٢٠٦﴾﴾[البقرة].

ثم ذكر قصة الخصمين اللذين بغى أحدهما على صاحبه واستكبر عليه. والباغي مستعلٍ ظالم مستكبر[2].

وذكر الطاغين وعذابهم قال تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾[ص].

والطاغية: هو الأحمق المستكبر الظالم الذي لا يبالي ما أتى[3].

وذكر الذين اتخذوا غيرهم سخرياً، والذي يسخر من الناس مستكبر عليهم يراهم دونه. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾.

ومن هذا نرى أن كل قصة وضعت في مكانها أحسن موضع وأجمله، وأن الجانب الذي عرضت له متلائم أحسن ملاءمة مع جوّ السورة الذي وردت فيه.

---

(١) روح المعاني ٢٤/ ١٦٣ وانظر التفسير الكبير ٢٦ / ١٧٥.
(٢) انظر لسان العرب وتاج العروس مادة (بغى).
(٣) لسان العرب وتاج العروس: (طغى).

ثم انظر من ناحية أخرى كيف أنه لما جاء في البقرة بالقصة كاملة ما يتعلق منها بآدم وما يتعلق بإبليس جمع فيها ما تفرق في الحجر و (ص) فقال:

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾[البقرة]. في حين قال في الحجر (أبى) وقال في (ص) ﴿ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

٣ - قال في الحجر: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وقال في (ص): ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

فذكر السجود في الحجر ولم يذكره في (ص) ذلك أن جو السجود شائع في قصة الحجر وسورتها أكثر مما في (ص). فقد ورد السجود في قصة الحجر ست مرات، في حين ورد في قصة (ص) ثلاث مرات. وقد ختمت السورة بالسجود أيضاً فقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

وهذا بخلاف ما في (ص) فإنه حتى إنَّ نبي الله داود لما تاب لم يذكر أنه سجد بل قال: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾.

فوضع كل تعبير في المكان الذي هو أليق به.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف أنه لما قال في إبليس: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أمر رسوله بأن يكون من الساجدين فقال له: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾. وهذا تناسق في التعبير جميل ومخالفة أصيلة لإبليس.

٤ - أضاف اللعنة إلى نفسه في قصة (ص) فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

ولم يفعل مثل ذلك في الحجر بل قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾.

وذلك أنه لما قال في (ص): ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ فأضاف الخلق إلى ذاته وإلى يديه العليتين قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى﴾ فأضاف اللعنة إلى نفسه. ولما لم يكن كذلك في الحجر قال: (اللعنة).

ثم إنه في قصة (ص) ذكر نفسه أكثر مما في الحجر، فإنه ذكر نفسه في (ص) ست مرات وفي الحجر ثلاث مرات.

قال في الحجر: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

وقال في (ص): مثل ذلك وزاد عليه قوله:

﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴿٧٥﴾﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى﴾ فكان كل تعبير مناسباً لجو القصة التي ورد فيها. جاء في (درة التنزيل): «للسائل أن يسأل فيقول: إذا كان المراد باللعنة وبلعنتي شيئاً واحداً فما بال اللفظين اختلفا فجاء في سورة الحجر بالألف واللام وفي سورة (ص) مضافاً؟ وهل يصح في الاختيار أحدهما مكان الآخر؟

الجواب أن يقال: إنَّ القصة في سورة الحجر ابتدئت في المعتمد بالذكر وهو خلق الإنسان والجن باسم الجنس المعرف بالألف واللام بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾[الحجر] ثم قال: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾[الحجر] وكان ما استحقه إبليس بترك السجود من الجزاء ما أطلق عليه اللفظ الذي ابتدئت بمثله القصة، وهو اسم الجنس المعرف بالألف واللام.

وكان الأمر في سورة (ص) بخلاف ذلك لأن أول الآية: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

فلم تفتتح بذكر الصنفين من الجن والإنس باللفظ المعرف بالألف واللام كما كان في سورة الحجر.

ولما كان موضع ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ جاء بدلالة ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ ثم قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ﴾ فجعل بدل (الساجدين): ﴿أَن تَسْجُدَ﴾ ثم قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ فخصصه بالإضافة إليه دون واسطة يأمره بفعله، أجرى لفظ ما استحقه من العقاب على لفظ الإضافة كما قال: (بيديّ) فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى﴾

فكان الاختيار في التوفقة بين الألفاظ الذي افتتحت به الآية واستمرت إلى آخرها هذا»[1].

٥ - قال في (ص): ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

وقال في الحجر: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴿٣٩﴾﴾.

فأقسم في (ص) بعزته، وأقسم في الحجر بإغوائه[2]، وذلك لما تقدم في (ص) ذكر اسمه العزيز قال تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ وقال: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ﴾. وقد بدئت السورة بالعزة أيضاً فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾[ص] فناسب أن يقسم بعزته سبحانه.

في حين أقسم في الحجر بإغوائه لما تردد من ذكر الإغواء، قال تعالى: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

فناسب أن يضع كل تعبير في مكانه الذي هو أنسب له.

٦ - قال في الحجر: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ وقال في (ص): ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

فذكر التزيين في الحجر ولم يذكره في (ص) ذلك أنه ورد ذكر الزينة في الحجر ولم يرد في (ص)، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾.

وقال في موطن آخر من السورة: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴿٨٨﴾﴾.

وهذا من التزيين في الأرض.

فناسب ذلك ذكر التزيين في قصة الحجر دون (ص).

---

(١) درة التنزيل ٢٥١-٢٥٢.

(٢) وقد قيل أيضاً: إنّ الباء في (بما أغويتني) للسبب لا للقسم وعلى أية حال فإن الجواب واحد.